أمريكا لن تترك العراق طوعا

الدكتور عبد الستار قاسم

2/أيار/2003

إنه من قبيل الاستغباء أن يقول مسؤول أمريكي أن أمريكا ستغادر العـراق بمجـرد أن يـتمكن الشعب العراقي من إقامة حكومته المنتخبة، ومن قبيل الغباء أن يصدق أحد هذا الادعاء. لم ترسل أمريكا أبناءها وبوارجها وطائراتها من أجل اليتامى والأرامل وحرية أهل العراق ولا مـن أجـل المبادئ الإنسانية أو القيم الفاضلة. لقد شنت الحرب من أجل مصـالح واضـحة لهـا وللكيـان الصهيوني وبتخطيط مسبق وواضح. وإذا كان لها أن تقيم ديمقراطية فإنها ستقيم واحدة مفصـلة خصيصا حسب المقياس الأمريكي بحيث يبقى العراق تحت الهيمنة.

أمريكا لا تؤمن أساسا بالديمقراطية بقدر ما تؤمن ببرامج ثقافية وإعلامية تطغى على عقول الناس فيتشربون المعرفة التي يراد لهم أن يتشربوها ومن ثم ينطلقون يتحدثون عن حرية شكلية تم تحديد جوهرها سلفا. لا تخلو أمريكا من الحريات وإنما لا ترتقي إلى درجة انفتاح المرء على مختلـف وجهات النظر والتحليلات وذلك بسبب الآلة العلمية والثقافية التي تخضع لمعايير محددة يعتبرهـا المخططون الأمريكيون المعبر الوحيد عن الحقيقة. الأمريكيون أحرار إلى درجة كبيـرة ضـمن دائرة الحقيقة الأمريكية وليس ضمن دائرة البحث المستمر عن الحقيقة. هم يتهمـون الآخـرين، الإسلاميين مثلا، بأنهم منغلقون ولا يقبلون الآخر على اعتبار أنهم وحدهم الذين يمسكون بزمـام الحقيقة المطلقة، لكنهم هم أنفسهم في مصيدة اتهاماتهم والشواهد على ذلك كثيرة. فمثلا يصـعب على الأمريكي أن يعرف أن الأغلبية الساحقة من أعضاء مجلس النواب الأمريكي مـن الأثريـاء الذين لهم مصالح اقتصادية ومالية كبيرة وارتباطات مع شركات ضخمة. وبالتالي يصعب عليه أن يعرف أن القوانين يصيغها أصحاب مصالح تحت مظلة من حرية الرأي. تاريخيا، القانون يعكس مصلحة واضعه وفلسفته الخاصة في الحياة. على أية حال، هذا موضوع طويل.

أمريكا تريد أن تطبق معاييرها للديمقراطية على مختلف دول العـالم بحيـث يـرتبط تعريفهـا بالمصلحة. الدولة الديمقراطية أو تلك التي يمكن التعايش مع استبداديتها هـي تلـك التـي تلبـي المصالح الأمريكية، أما الدول التي تتناقض مع المصلحة الأمريكية فليست كذلك بمن فيها فرنسـا هذه الأيام. ولهذا هناك نظم عربية صديقة للولايات المتحدة على الرغم من أن تحت الأرض يشهد بجرائمها ضد الإنسان، وأنظمة أخرى مصنفة عدائيا على الرغم من أن أبناءها يتمتعون بنوع من الحرية مثل لبنان. أي أن أمريكا تعرف الديمقراطية بناء على مصالح وقيم اقتصادية وليس بنـاء على مبادئ وقيم إنسانية.

يشهد التاريخ الأمريكي على ذلك داخليا وخارجيا. أجرم الأمريكيون الأنغلو-ساكسون بحق الهنود الحمر والسود، وقاموا بتغيير أنظمة حكم بالقوة والتآمر كما حصل في تشيلي والدومينيكان. ولـم يتوان الأمريكيون عن استخدام القنبلة الذرية ضد أهل اليابان، ولا اليورانيوم المخفف ضـد أهـل العراق.

أمريكا عبارة عن مجتمع مغامر لا يؤمن إلا بالقوة، ولديها قناعة بأن البقاء للأصلح. إنها عبـارة عن مجتمع مغامرين تجمعوا من مختلف بقاع الأرض وكان التقدم الشخصي هـدف كـل مـنهم استنادا على وسيلة القوة سواء الداخلية أو الأدواتية. أرض أمريكا هي أرض المتبـاهين بقـوتهم وصلابة إرادتهم وقدراتهم على مواجهة الأخطار والتحديات. لقد ترك الأمريكيون أساسا بلـدانهم ومجتمعاتهم بحثا عن الثروة التي يحتاج جمعها إلى سلك طرق المخاطر ويتطلب اسـتجماع مـا أمكن من القوة. وقد انطلقت الدولة من روح مؤسسيها الذين لم يؤمنوا بأن الضـعفاء يصـلحون

للبناء أو للبقاء، وسعت على الدوام إلى امتلاك القوة التي لا حدود لها ولا سقف. امـتلاك قـوة، حسب الطرح الأمريكي، يجب أن يقود إلى البحث عن قوة أكبر، وهكذا لتبقى عجلة التسلح فـي تطور مستمر.
ولهذا يبقى من السذاجة أن يتخيل أحد أن دولة المغامرين ستتحول فجأة إلى دولـة الـراحمين أو المحسنين. الإحسان ليس من شيم الأمريكيين، ولا الرحمة من السياسة الأمريكية. المصالح وحدها هي التي تقرر متى يجب أن تبدو رحيما ومتى يجب أن تقدم المساعدات. فـإذا ظهـر مصـاص الدماء رحيما فذلك لأن استمراريته في العمل الاستغلالي تتطلب ذلك، ولأنـه يعـرف أن أغلـب الواقعين تحت الاستغلال في العالم وعبر التاريخ هم من السذج الذين يأخـذهم الظـاهر دون أن يتعبوا أنفسهم في البحث عن الباطن. المصلحة المستندة على القوة هي التي تقرر كيفية ممارسـة الفضائل، إنما ليس من أجل الفضائل نفسها وإنما بهدف ميكافيللي يـأتي بخيـر خـاص يخـدم الأمريكيين وليس الإنسانية بالضرورية. لقد خدمت الكثير من المكتشفات الأمريكية الإنسان، لكنه لولا الأرباح المطلوبة لما قدمت أمريكا شيئا للآخرين.
لم يدرك الطالباني عندما ظهر على شاشة التلفاز وهو يحتضن جارنر على نمط ما يفعله العـرب والأكراد عند لقاء الأحبة حقيقة الأمريكيين. لقد أشفقت على هذا الرجل ليس لشخصه وإنمـا لمـا يمثله العربي أو الكردي أو التركي من سذاجة. ربما لا يعرف هذا القائد الذي يريـد أن يحـرر شعبه أن الأمريكيين لا يؤمنون بحرارة اللقاء وإنما بنفعيته، وإذا كان هنـاك مـن معانقـة فهـي مخصصة فقط للجنس اللطيف. ولهذا سار جارنر في طريقه لينتبه بعد لحظات أن مصافحه يريـد أن يحتضنه فلبى له الرغبة إنما بدون قُبل. وليت الطالباني يسترجع التاريخ ليرى كيف اسـتعمل الأمريكيون الأكراد كأدوات وبدون أدنى نوع من الاحترام. هذا شبيه ببعض القيادات الفلسـطينية التي ظنت أن المعانقة تجدي نفعا مع الأمريكيين، لتكتشف أنها لا تزيد الأمريكيين إلا جفاء.
لنا في الوضع العربي عبرة قوية من حيث أن الولايات المتحدة بقيت حاضرة على الـدوام فـي أغلب الدول العربية وتحدد لها تلك السياسات التي لها علاقة بمصالح الولايات المتحدة. لم تكـن الولايات المتحدة حاضرة بقواتها على الدوام في الدول العربية لكن شبح قواتها المسلحة وقـدرتها على تغيير الأنظمة كان دائما حاضرا. حتى أن الولايات المتحـدة كانـت دائمـا حاضـرة فـي مؤتمرات القمة ليس كمجرد لاعب قوي على الساحة الدولية وإنما كـآمر يتـدخل فـي صـياغة القرارات العربية. حتى أن الدول التي تسمي نفسها ثورية كانت تدرك أن أقوى المقاعد في القمـة هو ذلك الذي لا كرسي له.
يخطئ العرب إذا ظنوا أن أمريكا تستند على نظام سياسي أخلاقي أو أنها تحاول نشـر العدالـة والسلام في العالم. ربما يرى بعض الأكراد والعرب في العراق أنفسهم الآن منتعشين بسبب زوال النظام العراقي، لكنهم سيجدون أنفسهم قريبا مجرد خدم لدى السيد الأمريكي لا سـلطة لهـم ولا قدرة على اتخاذ القرار. سيستشارون بشأن قضايا داخلية لرفع ثقافة الأمـريكيين حـول المـزاج الشعبي العراقي والنسيج الاجتماعي والقيم الأخلاقية، لكن ذلك لن يتعدى مهمة الجاسوس المثقـف الذي يقدم المعلومات الوفيرة لقاء الفتات من المال والمحافظة على الجاه. ستنحصر مهمتهم فـي معاونة الأمريكيين على التحكم بالعراق وأهله وثرواته ولن يفـوزوا إلا بصـفة المقـربين مـن الأمريكيين الذين لهم يد في خدمة هذا الشخص أو ذاك على حساب المصالح العامة.
سنجد العراقيين الذين يوالون الأمريكيين أنهم ينقسمون إلى قسمين شبيهين بالمتعاونين الفلسطينيين مع الاحتلال الإسرائيلي. منهم من سيكون مجرد جاسوس صغير يقدم معلومات عن أفراد، ومنهم من سيكون جاسوسا كبيرا كبعض المثقفين الذين يعملون فـي مراكـز وجمعيـات بحثيـة تقـدم المعلومات المستندة على أبحاث علمية للأمريكيين. ومن المحتمل جدا أن يقبل بعضهم القيام بدور

جيش جنوب لبنان أو بعض الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية. أما من أراد رحمة لنفسه فإنه بالتأكيد سيسارع بإدارة ظهره للأمريكيين حفاظا على ماء وجهه على الأقل.
الجنة الأمريكية ليست على أبواب العراق، ولن ينفذ الأمريكيون أيا من الوعود البراقة التي أطلقوها. أخلاقهم لا تسمح بتنفيذ ما أوهم بعض العرب أنفسهم به، وسيتخندقون بالمزيد في الأرض العراقية انسجاما مع أخلاقياتهم المغامرة. هذا إن قرر العراقيون أن يتركوا الأمور تستتب للغزاة. وصحيح أن للأمريكيين مصالح نفطية، ولهم مصلحة في القضاء على العلماء العراقيين وفي المحافظة على إسرائيل، لكن كل هذه المصالح تنتهي في النهاية إلى أخلاق المغامرة التي تحكم السياسة الأمريكية. وعليه فإن الأمريكيين باقون ما لم يدركوا أن جهنم تأكل منامهم.